مكان في القلب

بمناسبة الحالة الراهنة من انقلاب الموازين وردة معظم معاييرنا الثقافية، وبسبب قرب الإحتفال المئوي، أحب أن أذكر آلاف من خريجي هذا المحراب، وملايين ممن تطلعوا إلى الإلتحاق به وممن كانوا يبجلونه، وآخرين من المعنيين بشؤون التعليم **بكلية الفنون الجميلة** ككيان كان منوط به إعلاء شأن الفن والعمارة في مصر.

كتب تيلهاردي شاردان **"أن روح البحث والكشف هي اللب الأسمى للتطور، فهي تتغلغل في أعماق كل أولئك الذين نذروا ذكاءهم وحياتهم للفن والعلم"**. ولأن العلم والفن فرعان من فروع النشاط الذهني الانساني، فهما متناظران كما هما مختلفان. وخلال الكثير من مراحلهما الاجرائية يكون هناك تطوراً متوازياً ومتقارباً جداً للأفكار العلمية والأفكار الفنية؛ فالفكرة أو الالهام، قد تأتي للعالم فجأة، كما لو كانت هابطة من السماء، مما يشير إلى أن الأفكار تنبع من أعمق مناطق الذهن البشري. لكن الفكرة لا يمكن أن تتحول إلى واقع ملموس دون أن يجري في الذهن - خلال عملية حدسية تلقائية - ربط عدد من الحقائق المنفصلة يقوم بعدها العالم باقامة الدليل على فرضيته عن طريق التجارب والاختبارات. وبعبارة أخرى، "الفكرة" تأتي أولاً. وبالنسبة لمراحل الاختلاف في الأفكار الفنية، فسببها زيادة أهمية العناصر الذاتية، في حين تحتل العناصر الموضوعية القابلة للاثبات ذاك الدور في الأفكار العلمية *(سلمان الواسطي، 1986)*.

وعلى هذا الأساس أنشئت مدرسة الفنون الجميلة Ecole des Beaux-Arts بباريس- فرنساعام 1819، وكانت تؤهل الطلاب لمسابقة روما الكبرى Grand Prix de Rome، وهي جائزة سنوية تمنح بواسطة أكاديمية الفنون الجميلة بإيطاليا. وأقيمت على أساس تعليم العمارة على **أسباب علمية و فكرية، مع التاكيد على القيم الجمالية و البعد التاريخي**. كان هدف البوزار الأسمى هو **تحقيق شخصية قومية محلية في العمارة والفن.** وقد زادت سيطرة البوزار بعد عقد أول امتحان رسمي للحصول على دبلوم العمارة في عام 1869 كأساس لكل من يريد أن يمارس المهنة مما أدى إلى سيطرة المدرسة وسيادتها باعتبارها أول وأكبر مركز للتعليم المعماري في العالم. وعندما أعيد تشكيل المدرسة عام 1883، **ارتبط تعليم العمارة بها بالتصوير و النحت**. وبالنسبة لمدرسة الفنون الجميلة المصرية، فقد تأسست على يد الأمير يوسف كمال عام 1908 على غرار مدرسة الفنون الجميلة بباريس، وخضعت لإشراف وزارة المعارف العمومية عام 1910، ثم تحول اسمها إلى مدرسة الفنون الجميلة العليا عام 1927، ثم المدرسة العليا للفنون الجميلة عام 1941، ثم الكلية الملكية للفنون الجميلة عام 1950. ضمت إلى وزارة المعارف العليا عام 1961 باسم كلية الفنون الجميلة، ثم ضمت أخيراً إلى جامعة حلوان عام 1975. ولطالما حافظت الكلية على جاذبيتها للطلاب المنتهين من الدراسة الثانوية واللذين يجتازون اختبار القدرات للقسم المراد الإلتحاق به بنجاح.

وقد التحقنا بالكلية في ثمانينيات القرن العشرين طمعاً في الحصول على **"جنسية الفن الجميل"** بناء على الحكايات الشائعة حولها والتي كانت أشبه بأساطير الشرق وحكايات ألف ليلة وليلة. شملت الحكايات أساليب التدريس ومظاهر الارتباط بين الأساتذة والطلاب وتبنيهم لهم. وكذلك التقاليد الخاصة بالكلية مثل تدشين الطلاب الجدد في أول أيامهم الدراسية. والمزيد عن روح الكلية وطبيعة الحياة فيها، والتي صبغت شخصيات روادها وبالتالي مجتمعنا مثل رمسيس ويصا واصف وحسن فتحي وعبد السلام الشريف والسجيني وراغب وصبري وغيرهم الكثيرين. وكانت الكلية وقتها تقبل طلابها على أساس نجاحهم في امتحانات خاصة بقدراتهم بالنسبة للقسم المراد الالتحاق به وليس على أساس مجاميع نهاية المرحلة المدرسية. وبالرغم من قلة عدد الطلاب والخريجين، وصغر حيز الكلية وقاعاتها وأتيليهاتها – والتي لم تكن تشكل أكثر من فيلتين في الزمالك ومبنى صغير بعد نقل الكلية إليها من قصر يوسف كمال بالمطرية، إلا أن خريجي الكلية كانوا يشكلون زمرة قيادة فن وعمارة المجتمع. والدليل على ذلك موسوعات الفن والعمارة وشهادات ثروت عكاشة وعز الدين نجيب وكامل الزهيري وكمال الملاخ وغيرهم من المؤرخين للقرن العشرين. وانخرطنا في نظام تعليمي مختلف عما توقعناه ولم يعزينا إلا وجود عدد من هؤلاء الأساتذة الذين داعبوا يقظتنا بحكايات الكلية. فدرسنا العمارة والفكر والحضارة والفن على أيدي يحيى الزيني وكمال الدين سامح وعبد الفتاح البيلي وعبد الحميد عزمي ونعمت اسماعيل ويحيى عبد الله والغزالي كسيبة ومحمد توفيق عبد الجواد وصبحي جرجس ورضا عبد السلام وناجي شاكر ونبيل راشد وصبري منصور وسامي رافع وكمال شلتوت وعلية عبد الهادي وصلاح نايل وزكريا

الزيني وعباس شهدي وتميم النجار وعبدالهادي الوشاحي وحامد ندا وغيرهم. ومن لم نتتلمذ على يديه مباشرة حظينا منه بلقاء أو حوار أو محاضرة أو حتى تعليق. وقد شهدت بعيني قطط صلاح عبد الكريم وحكى لي عم فؤاد (شاهد الكلية، وفراش العميد) عن دراجة السجيني وعن نعجة أحد طلاب العمارة الريفيين أثناء بياته لتنفيذ المشروعات. وحكت لي بعض الدادات العجائز (موديلات زمان) عن رقة وأدب الأساتذة والطلاب في الأتيليهات. وأكم من زميلات محجبات وزملاء من أشد المدافعين عن ديننا امتثلوا لدراسة الفن (على أصوله) ولم يهتز إسلامهم بل إزدادوا تعمقاً فيه، وإزدادوا إيماناً بقدرة الله في خلقه وقدرته على منح الموهبة والفطرة والقدرات الخاصة لدى عباده المبدعين.

والآن، تطالعنا الصحف بجدليات حول حرمانية الفن وحرمانية تصوير الجسد الإنساني وتشريحه فنياً. ومن ناحية أخرى، نجد ضعف امتحان القدرات وارتباط الكلية بمجاميع الثانوية العامة والأعداد التي تفرض عليها قبولها لتسكينها وفق النسب التي يحددها التعليم العالي، ونظم تعيين أعضاء هيئة التدريس بناء على المتوسط العام للتقديرات وليس بناء على تفوقهم في مواد التخصص، إضافة إلى الحال العام الذي آل إليه التعليم من تدهور. **فلا عجب أن تتراجع الكلية عن أداء دورها المنوط بها ويصبح خريجيها مجرد حملة شهادات عليا.**

لم يتسع مجال كتابة هذا المقال لتتبع تطور العملية التعليمية بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة إلا انها -وللأسف- قد تحولت تدريجياً من **شدة التميز والخصوصية إلى العموم والشيوع**. فالآن، وبعد مضي ما يقرب من مائة عام على إنشاء مدرسة الفنون الجميلة، صارت كغيرها من الكليات المنتشرة في مصر. ولا تختلف إلا في وجود بعض الأقسام التي لم يكن لها مناظر خارج الكلية، والتي بدأت بعض الجامعات الخاصة في طرحها. فإذا ضربنا مثلاً بقسم العمارة، تؤكد الإحصاءات عدم تميز القسم بأي حال من الأحوال عن باقي أقسام العمارة والتي يزيد عددها عن خمسة وثلاثين قسماً ما بين حكومي وخاص –إلا ربما التخصص منذ العام الأول. وقد تراجع قسم العمارة في مصاف كليات القمة تبعاً لمؤشرات مكتب التنسيق والقبول للحاصلين على الثانوية العامة. وبالنسبة لطبيعة الدراسة الحالية، فان قسم العمارة بالكلية لا يكاد يختلف عن أي من مدارس العمارة إلا في بعض محتويات المقررات أو المسميات على مدار السنوات الخمس. ويعبر حال التعليم بالكلية عن الصورة العامة للحالة الراهنة للتعليم الجامعي في مصر والذي تتهمه العديد من الدراسات المعنية بأنه تعليم تقليدي يجب تطويره، ويتهم بأنه تعليم نظري، يطرح ترجمات وآراء مسبقة، في تجاهل لمهارات الطلاب الهامة المؤثرة وسلوكياتهم المكافئة التي يمكن تنميتها من خلال التجريب الفعال والمنشط لتلك القدرات المتنوعة. فيصبح الطلاب بالتالي في مواجهة مع مدركات مسبقة، مما يجعلهم على قدر بسيط من التحكم في تعليم أنفسهم بأنفسهم. ونتيجة لهذا النظام التعليمي، يتم تشجيع الإعتماد على المعلمين والأساتذة كمصدر المعلومة والرأي، وينظر الطلاب للأساتذة على أنهم الوسيط الوحيد في التعليم و الحكم، مما يحرم الطلاب من تنمية مهارات الاستكشاف الذاتي للمعلومة والتعبير عن الرأي الشخصي، والنقد الذاتي الموضوعي. وبالنسبة لنظم الحكم والتقويم، ففي ظل هذا النظام التقليدي لا يتم تعريف الطلاب بمعايير الحكم والتقويم والتي عادة ما تبنى على إعتبارات شخصية، مما يحرم الطلاب من تعلم الموضوعية والنقد والتعبير عن الرأي وتقبل الرأي الآخر.

وتشرح الدراسات في مجال القدرات الابداعية وتصنيفها وربطها بعلوم الأحياء والدراسات السلوكية كيف يعمل نصفي العقل. فالنصف الأيمن هو الشمولي ويتعلق عمله بالحدس و التخيل، وهو ما يميز الفنان. بينما النصف الأيسر هو الممنطق والمحلل ويتعلق عمله بالوقائع والمحددات، وهو ما يميز العالم. وعليه، فان **خريج كلية الفنون الجميلة** هو الفنان العالم أو العالم الفنان، وهو الذي يتعلق إبداعه بتشغيل نصفي عقله بنفس القدر وبنفس الكفاءة، وهو ما تؤكده نظرية كارل يونج عن **الأنشطة الذهنية المتضادة**. فالطالب يفترض أن تنمى فيه القدرة على الاحساس، التفكير، الادراك، التخيل والنظرة الداخلية لمركبات الأمور، والنظرة الشمولية لها. و تلك القدرات تعمل منفردة أو مجتمعة، لكن هناك أنشطة تمنع أو تعوق الأخرى مثل التفكير والاحساس، الادراك والحدس، النظرة التحليلية لمكونات الموقف والنظرة الكلية لها. وبعبارة أخرى، فان بعض هذه النشطة الذهنية تعمل بطريقة أفضل في مواقف أو مجالات منفصلة. ومن هنا، ومن أجل اكساب التعليم بكلية الفنون الجميلة صبغة الفن العلمي أو العلم الفني، فلابد أن يتم توعية طالبها بهذه الأنشطة ويتم تدريبه على متى وكيف يستدعي ويستخدم النشاط الذهني المحدد طبقاً للموقف الراهن. وقد أثبتت التجارب صلاحية التفكير والادراك والنظرة التفصيلية للأمور في مجال اكتساب المعرفة، وصلاحية الاحساس والحدس والنظرة الكلية للأمور في مجال التطبيق.

وبالرغم من تصميم المناهج في كلية الفنون الجميلة بحيث توفر تنوع وغزارة المعرفة، تثبت الدراسات أن العملية التعليمية بها يمكن أن يطلق عليها "عملية عصف ذهني" (brain storming process) وليست عملية "اجرائية" (procedural) فغالباً ما يتم تدريس المواد النظرية داخل قاعات المحاضرات، والتي تنفذ بالطريقة التقليدية "التلقين"، فتقدم المواد النظرية كحقائق واقعة، بدون الالتفات أو الاهتمام بشرح الديناميات المسببة خلف تكوين هذه المبادئ والنظريات مع الكثير من التمارين المنزلية، والتي يتطلب بعضها رحلات لعمل تقارير أو أبحاث ميدانية. ويقوم الطلاب بالتمارين خارج حرم الكلية – سواء فرادى أو في مجموعات- بدون توجيه أو ارشاد فيما يخص ماذا ولماذا وكيف يبحثون في العالم الخارجي. وبالنسبة للأبحاث، فتتم بدون اتباع قواعد البحث العلمي، مما ينتج عنه جهل الطلاب بقواعد جمع البيانات، الملاحظة، التحليل، ونوعيات وطرق لبحث المختلفة كالوصفي، والنقدي والتقويمي، إلخ. وبالرغم من التركيز على الأتيليهات والمراسم بالكلية، إلا أن غياب المناخ التمثيلي يؤثر سلباً على الطلاب بعدم تعاملهم الكافي مع المستعملين بالقدر المباشر بالنسبة لاحتياجاتهم و تطلعاتهم، ويحرمهم من التعامل مع متغيرات الواقع ومعوقاته، نتيجة عدم انغماسهم الحقيقي في أبحاث تقويم جادة، وهي بمثابة العامود الفقري للتعامل مع المواد العملية. وحرمان الطلاب من التعرف على الأوضاع الحقيقية ينتج عنه مصممين وفنانين أنويين، يتعاملون بمعزل أو بمنأى عن أي سياق محيط.

يؤكد بعض أساتذة الكلية على أن النظام التعليمي الحالي بها يعاني الكثير من المشكلات مع زيادة أعداد الطلاب الذين يلتحقون بالكلية طبقاً لمجاميعهم وليس طبقاً لمهاراتهم أو قدراتهم أو حتى اهتماماتهم. وتتنوع تلك المشكلات بين عدم كفاءة امكانات المراسم والقاعات وبين قلة الوقت المخصص لدراسة مواد التخصص وسط خضم باقي المواد وبين سوء التواصل بين الأساتذة والطلاب. وينبهون إلى الحاجة إلى تطوير أداء الأساتذة أنفسهم وضرورة خضوعهم إلى تقييم دوري كوسائل لحسن ادارة وتطوير النظام التعليمي. إضافة إلى ضرورة الخروج عن نطاق التعليم المباشر إلى حيز **التعلم الخبري** (experiential learning) كمنهج تعليمي، مع التركيز على ربط القيم الجمالية بما تعكسه من حاجات مجتمعية ومرجعيات ثقافية.

ومما سبق، ومما لا يدع مجالاً للشك، أنه هناك حاجة ملحة لتطوير التعليم في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، وذلك بهدف الارتقاء بالعملية التعليمية بها، من أجل التحول من تنمية المهارات الفردية إلى التفاعل المتكامل، من التعليم النظري المحدود بالمقرر المحدد أو المكتوب والتمرين الملزم إلى التعليم المستمر غير المحدود، مفتوح النهاية. وأخيراً من التعليم الموجه بواسطة "واضعي الدرجات" إلى التعليم الذاتي كعملية مستمرة لما بعد التخرج والحصول على شهادة الصلاحية لممارسة المهنة "**بكالوريوس الفنون الجميلة – أياً كان التخصص** ".

والدعوة إلى تطوير العملية التعليمية في كلية الفنون الجميلة بما يتناسب واسمها ومكانتها العريقة، ومن أجل أن تستعيد الكلية خصوصيتها وتميزها. وهي جزء من الدعوة العامة لتطوير التعليم في مصر. وبناء عليه، فانه **يجب تقويم وإعادة صياغة العملية التعليمية بها** بحيث تقدم الكلية للمجتمع فنانين على مستوى المنافسة، مواطنين صالحين، ناضجين فكرياً ذوي حساسية ومسؤولية اجتماعية، ومصممين، يعملون على رفع الوعي الجمالي والتذوق الفني في كافة أنساق البيئة المبنية. وأخيراً فالتعليم في كلية الفنون الجميلة، هو أحد مجالات التعليم التي هي في الأساس جزء من النظام الاجتماعي المصري. والنظم الاجتماعية لابد وأن تستجيب لجملة التغيرات التي تحدث حولها. فهل يستجيب التعليم في كلية الفنون الجميلة ويتغير ويتكيف ويتطور، أم يظل في تردي؟؟؟

رحمة بكليتي التي انتميت إليها وجدانياً منذ وعيت أحاديث خريجيها وعلى رأسهم أبي وأمي عنها، وإلتحقت بها فعلياً وتخرجت فيها وحصلت منها على شهادتي الماجستير والدكتوراة وما زلت أشرف بإنتسابي إليها وسأظل.

د. هبة صفي الدين